مجلة مجتمع تربية عمل

ISSN: 2507-749X EISSN: 2602-7755

https://www.asjp.cerist.dz/revues/414

المجلد:07/ العدد02 (2022) ص ص 93/80

إشكالية التوجيه القيمي في المجتمع في ظل العملية التربوية وفق طرح بن نبي

The problematic of value-orientation in society in the educational process according to malek ibn nabi's approach

شيبان آية كوثر *

جامعة آكلي محند أولحاج البويرة (الجزائر)

مخبر متعدد التخصصات في علوم الإنسان البيئة والمجتمع

aya.chibane@univ-bouira.dz

شعلال باهية

جامعة آكلي محند أولحاج البويرة (الجزائر)

b.challel@univ-bouira.dz

معلومات المقال

تاريخ الارسال: 2022/01/29

تاريخ القبول: 2022/05/14

الكلمات المفتاحية:

- ✓ التربية
- ✓ الثقافة
- ✓ الحضارة

ملخص:

ترمي هذه الدراسة إلى تقديم قراءة تحليلية لفكرة التوجيه القيمي في ظل العملية التربوية الذي يسعى من خلاله إلى إصلاح إنسان ما بعد الحضارة، الذي عانى من أزمة فكرية، اجتماعية وتربوية، أثّر ذلك فيه كنسق فرعي، وتَبعه النسق الاجتماعي العام، من خلال تمزق شبكة العلاقات الاجتماعية وتفككها، وذلك لغياب البُعد التربوي. إذن لبلوغ هذا الإصلاح لابد من الرجوع إلى العامل التاريخ للتمكن من فهم الأصول، والتحرر من الآخر، وفك عقدة النقص والولاء التام له، أي التحرر من فكرة القابلية للاستعمار، وبمحاولة تحقيق هذه الأهداف والهدف المنشود المتمثّل في بناء مشروع إنسان الحضارة، لابد من التركيز على التربية الحقيقية التي ربطها مالك بن نبي دائماً بالثقافة والحضارة والتي تمثل السلوك الاجتماعي ومجموعة الشروط الأخلاقية الأساسية للوصول إلى نموذج الإنسان المسلم المتحضر.

Article info

Received : *29/01/2022*

Accepted : *14/05/2022*

Keywords:

- ✓ Education:
- ✓ Culture:
- ✓ Civilization:

Abstract :

This study aims to provide an analytical reading of the value-orientation approach in educational process which seeks to reform the old civilization of man who suffered from intellectual, social and educational crisis that affected him both in a personal and social way through breaking up and disintegrating his social network because of a the lack of a good education. Therefore, in order to carry out this reform, it is necessary to refer to the historical factor in order to be able to understand the origins of the problem and enable people to be independent of others and also to remove the inferiority complex and the total devotion to others , that's to say, to be liberated from being willing to be colonized. Thus in order to achieve these objectives and build a project of civilization for man, it's necessary to focus on the true education that Malik ibn Nabi has always associated with culture wich represents social behavior and a range of ethical and fundamental conditions according to the muslim and civilized man model.

* المؤلف المرسل

❖**مقدمة:** لا تقاس قوة المجتمع بما يملكه من ثروات مادية، بقدر ما يحمله من أفكار قادرة على التغيير، ومفكرين قادرين على فهم قضايا المجتمع، حيث ارتبطت في جوهرها بالإنسان والذي يعتبر الأساس في بناء الحضارة وتطور المجتمع، فالتخلي عن الأفكار التي تصنع التغيير وتبني التاريخ تجعل من المجتمع يفقد البعد الحضاري، ويتورط في المشكلات الكبرى.

إن العالم الإسلامي راح يهدر طاقته في حل مشكلات جزئية متغاضياً عن المشكلة الكلية المتمثلة في مشكلة الحضارة، ولا يمكن للمجتمع أن يفهم أو يحل مشكلة ما لم يرتفع بفكره إلى الواقع الإنساني، وما لم يتعمق في فهم العوامل التي تبني الحضارة أو تهدمها، ويرتكز ذلك على نوعية الأفكار والأساليب التربوية المعتمدة في تنفيذها، ومواجهتها للعقبات والعراقيل التي تصادفها، وبالتالي تؤثر على المجتمع إما كعوامل نهوض أو كعوامل معوقة للتحرك والنمو.وتنطلق مشكلة الحضارة من فهم المفكرين للحضارة ذاتها إذ ربطوا معناها بالبداوة، فوفق قسوم (2012) في ذلك طمس لمعالم البداوة التي تمثل إحدى روافد حضارة مجتمعنا العربي الإسلامي، والتي نتغنى بمحاسنها في أدبنا، ولا نعني بها المدنية، فالحضارة يقابل معناها البدائية لا البداوة. والفهم الصحيح للمعنى يحقق لنا العلاقة بين الطبيعة والتاريخ داخل الحضارة فيقول مالك بن نبي في هذا الصدد: "أن الطبيعة توجد النوع، ولكن التاريخ يصنع المجتمع، وهدف الطبيعة هو المحافظة على البقاء، بينما غاية التاريخ أن يسير بركب التقدم نحو شكل من أشكال الحياة الراقية، وهو ما يطلق عليه اسم الحضارة"، والمقصود من ذلك هو الرجوع الدائم لسنّة التاريخ التي تُعتبر الأصل في بناء الحضارة.

فالتاريخ وحده لا يصنع الحضارة فلابد من وجود البعد الديني الذي يبني الفكر ويؤسس لبعد تربوي حضاري، فكل حضارة تبدأ ببزوغ فكرة دينية تقوم بتركيب عناصرها وتنظيم الطاقة الحيوية للأفراد، وتثير فيهم الحركة والنشاط بحيث يتحرر الفرد في هذه المرحلة الأولى الصاعدة من هيمنة الغريزة ويخضع لهيمنة الروح، وفيها تصل شبكة العلاقات الاجتماعية إلى قمة كثافتها –فيصبح المجتمع كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا– هذا هو وضع النهوض، فالفكرة الإسلامية نجدها قد طوّعت الطاقة الحيوية في المجتمع العربي الجاهلي ليصبح مجتمعا متحضرا وهو في الحضارة الإسلامية يكافئ المرحلة النبوية ومرحلة الخلافة الراشدة.

لم تتوقف المشكلة التربوية عند مشكلة الأفكار والحضارة وحسب، بل شمل أيضا مشكلة أخرى محورية وهي مشكلة الثقافة، حيث أنها تعرضت هي الأخرى إلى مشكلة فهم المعنى فمنهم من ربطها بالفردانية كالرأسمالية ومنهم من ربطها بالجماعة مثل الشيوعية، وآخر ربطها بالفولكلور وغيرهم، بل في الحقيقة هي مربوطة بالجانب القيمي من خلال أربعة عناصر هي: الأخلاق، الجمال، الذوق، والمنطق العملي، والعلاقة بين هذه العناصر هي التفاعل الذي يدفع بالإنسان نحو التحضر.

ترتبط الحضارة والثقافة بمفهوم آخر يتمثل في التربية، حيث يعتبر هذا المفهوم ذا أهمية بالغة في التجديد والبناء الحضاري، إلا أنه لا ينحصر في الجانب الأكاديمي كما جرى تداوله، بل هو منهج تغيير وتجديد مستمر لا يحده الإطار الزماني أو المكاني، حيث تُبنى عليه الحياة الإنسانية باعتباره يعالج أمراض المجتمع ومشكلاته، فظهرت أهمية التربية في البناء الحضاري وتطور المجتمعات.

لقد بذل الكثير من المفكرين جهودا في مجال التربية لتحديد معناها، أما مالك بن نبي فيرى أن التربية هي تربية للحرية عن طريق الحرية، حتى يتمكن الإنسان المتربي من أن يفهم ويشعر أنه صانع مصيره، عن طريق فسح المجال لأفكاره لتتبلور وتظهر في سلوكياته، وتتفاعل مع النسق العام لحركة المجتمع، ولكن لازالت أفكار بن نبي التربوية لم تُكشف بعد في الشكل الذي يُيسر استخدامها كنظرية تربوية وعلاج مختلف المشكلات في هذا الميدان، حيث لم يطرحها بالشكل المتخصص لذا جاءت عملية الكشف عن أفكاره وتنظيمها وتحليلها في شكل منظور متكامل، وبالتالي تناول المشكلة التربوية ضمن العديد من المشكلات المتداخلة، حيث اعتبر أن الإنسان أساس منظوره المنهجي في تناول مشكلات الحضارة.

تكمن أهمية دراسة المشكلات التربوية وفق طروحات مالك بن نبي من أهمية فكر مالك بن نبي في حد ذاته، وذلك بتسليط الضوء على أفكاره التربوية الكبرى، هذا ما جعله يتبوأ مكانة مرموقة بين المفكرين، فاستطاعت أفكاره أن تؤسس لبناء الحضارة الفعلية ومثال ذلك النموذج الماليزي. ومما سبق يمكن طرح التساؤل التالي : هل العملية التربوية ظاهرة إجابية بوجود التوجيه الأخلاقي حسب طرح مالك بن نبي ؟

❖ **التوجيـه القيمـي:** إن قوة التماسك في المجتمع حسب بن نبي (2013) لا تتحقق إلا بتوفر العامل الديني وهذا حسب ما أشار إليه مالك بن نبي، حيث أنه يطرح التساؤل التالي : هل الدين مجرد فكرة أم أنه طريقة عيش ومنهج حياة؟ ومن هنا يمكن أن نجيب على التساؤل من منظور عقلاني وواقعي، هو أن الدين فعلاً اسلوب حياة وطريقة عيش فهو موجود في كل تفاصيل حياتنا ولاسيما الدين الاسلامي السمح، كما يعتبر في مضمونه منهج تربوي أساسي في العملية التربوية التي نقدمها للطفل من بداية تلقيه لهذه العملية وتمتد معه الى النهاية، فالدين هو كلٌ متكامل من الأساليب والطرق والمناهج والعمليات التي تساهم في بناء الفرد من كل الجوانب خاصة الشخصية، فالإسلام قوة تعمل على تحريك عقولنا وسلوكنا المنبعث في صورة اسلام اجتماعي ، حيث أنه من خلاله تنتج شبكة علاقات اجتماعية متماسكة وفعّالة، وذلك باستخدام العوالم الثلاثة استخداماً حقيقياً وصحيحاً، والذي يجعل المجتمع اكثر تماسكاً ووعياً وتحضراً، فالدين ليس مجرد مظاهر تتعلق باللباس وإنما ما وقر في القلب وصدقه العمل إذن قوة التماسك جديرة بأن تؤلف لنا حضارتنا المنشودة وفي يدها– ضمانا لذلك – تجربة عمرها ألف عام، وحضارة ولدت على أرض قاحلة وسط البدو رجال الفطر والصحراء، وطرح مالك بن نبي فكرة التوجيه الاخلاقي وربطها بثلاثة عناصر أساسية متمثلة بالتوجيه الجمالي والمنطق العملي والتوجيه الفني.

❖**التوجيه الجمالي:** مرتبط أساساً بمضمون الفكرة، فإن كانت الأفكار التي نحملها تجاه الأشياء أفكاراً سلبية وقبيحة فهذا سينطبع فوراً على نظرتنا لهذه الأشياء، وتبقى الصورة مشوهة دائماً حتى وإن كان الشيء أو الفعل أو الشخص الذي نحمل اتجاهه هذا النوع من الأفكار ليس حقيقي، فلن تتغير تلك النظرة والصورة النمطية التي كونّاها عنه، والعكس تماماً فإذا كُنّا نحمل أفكاراً إيجابية اتجاه الأشياء والأفعال والأشخاص فسنُكَوّن صورة جميلة حتى وإن كان ذلك ليس حالهم، وهذا يرتبط بالمحيط أي المجتمع عندما يطرح الأفكار بصورة معينة سواءًكانت إيجابية أو سلبية، ومدى تقبل عقلنا الباطني لتلك الفكرة وكيفية التعامل معها في الواقع.

إذن نجد أن جزء من عالم الأفكار الذي يتكون عند الفرد هو مجموعة الأفكار التي يُمليها عليه المحيط الذي يعيش فيه وينشأ عليها، فتصبح بمثابة المسلمات بالنسبة إليه، وكل فعل يقوم به يكون مبنياً على تلك الافكار.

فالذوق الجميل يطبع في نفس الفرد النزوع إلى الإحسان والتفاني في العمل، كما أن أثر تلك الصورة يُطبع في تفكير الإنسان وفي عمله وفي السياسة التي يطبقها على نفسه، بل وابعد من ذلك، فسيكون مطبوعاً في ابسط التفاصيل التي نمارسها، وهو نفس الشيء بالنسبة للذوق القبيح الذي يجعل الإنسان يرى بعين القُبح والتشاؤم لكل ما حوله، وهنا تدخل التربية الدينية التي طرحناها في البداية، فالدين الإسلامي أمرنا ان نتفاءل بالخير لنجده في كل ما نقوم به، والمنطق الجمالي أو القبيح يدخل كلاهما في طرق وأساليب العيش، ويظهر جلياً في حالة الفرد سواءً الداخلية أو الخارجية، وحتى في أساليب حل مشكلاته.

ولا شك وفق بن نبي (1989) أنه بتطرُقنا إلى الذوق الجمالي فإننا حتماً سوف نذهب إلى نمط اللباس في المجتمع، فحينما يجتمع الأفراد بتقاليدهم على لباس معين في مجتمع ما، فإن ذلك يعكس بصورة واضحة تصرفاتهم وفقاً لهذا اللباس، فإذا قُلنا أنه في بلاد الشام قديماً كان هناك ما يسمى بـ"الطربوش" وهي قبعة ذات شكل معين، ترمز إلى من يرتديها أنه من أهل المدينة، أما "الكوفية" وهي قطعة من القماش المزخرف توضع على الرأس أيضاً، ترمز إلى من يرتديها انتماءه لأهل الريف، ووفقاً لتلك الثنائية كانت تنعكس الكثير من الحيثيات، فلغة الكلام كانت تختلف بمجرد اختلاف اللباس ومحيط العيش، وكذلك المهنة، فقد كان أهل المدينة يتميزون باشتغالهم الوظائف الحكومية والمهن العلمية والاقتصادية والهندسية وغيرها، التي تحفظ ذلك الطابع المدني لطريقة عيشهم وفقاً للباسهم، أما بالنسبة

لأهل الريف فقد كانوا يتميزون بالمهن اليدوية والحرفية كالزراعة والفلاحة، والتي تحفظ لهم أيضاً طابعهم الريفي، إذن الملبس هنا يحكم تصرفات الإنسان إلى حد بعيد، ليس تصرفاته فحسب، إنما نمط معيشته ككل.

وبمثال ليس ببعيد عن واقعنا الحالي، فإننا نرى بشكل جليّ كيف أن اللباس يتحكم بأسلوب عيش الأفراد في وقتنا الحالي، ومن زاوية أخرى فإن تبديل نمط اللباس بهدف تبديل نمط الحياة واردٌ أيضاً، فنرى أن فئة الشباب –ذكوراً وإناثاً– غالباً ما يميلون إلى تغيير نمط لبساهم لفرض أسلوب حياة معين على المحيطين بهم، فالشباب الذين يرتدون اللباس الممزق أو الذين يكشفون أجزاءً من أجسادهما و يرتدون اللباس ذات الألوان الصاخبة والنمط الغربي، فإن ذلك يوحي وبشكل فوري للمتحدث معهم على أنهم أفراد ذات عقلية منفتحة وحضارية، وهنا لا يتحكم نمط اللباس بصاحبه فقط، وإنما بطريقة التعامل مع هذا الشخص من قِبل أي فرد يلتقيه، فتصبح في هذه الحالة كما نرى مؤخراً أن معظم الممنوع مسموح مثل (الاختلاط غير المقيّد بين الجنسين، المصافحة المحرّمة، النكات... وغيرها)، ولا شك أن هذه الثقافة التي دخلت على عالمنا الإسلامي بدعوى الحضارة والانفتاح، ليست إلا انفتاحاً كاذباً وتقليداً أعمى للغرب يتبعه شبابنا، واستيراداً لأفكار الغير دون تمحيصها وجعلها متوافقة مع خصوصيات مجتمعنا، وبقدر تلك الأفكار تم تمزيق شبكة العلاقات داخل المجتمع الاسلامي وإحداث ما يُسمى بالفراغ الاجتماعي، والذي يدفع بالمجتمع نحو الهلاك وليس التقدم والتحضر، وذلك لعدم تمسكه بحضارته وثقافته.

إذن يرى بن نبي (1985) أنه نلاحظ أهمية التوجيه الجمالي في تغيير مسار المجتمع بأكمله، في حال لم يتم ضبطه إن كان على أي مستوى من المستويات الاجتماعية والثقافية والدينية والقيمية، حيث أن الإطار الحضاري بكل محتوياته متصل بذوق الجمال، وفرضِ احترامنا على الشعوب الأخرى مرتبط بطريقة مباشرة بمدى تمسكنا بهويتنا، كما أن احترامنا لغيرنا مرتبط بمدى تمسك الشعوب الأخرى بهوياتهم، وهذا موجود فعلاً إذا نظرنا إلى الدول العربية وما تكنّه من احترام للدول الغربية غالباً، والدول العظمى التي تحظى باحترام وتقدير العالم أجمع.

❖ **المنطق العملي :** يقصد مالك بن نبي بالمنطق العملي ارتباط العمل بوسائله ومقاصده، (أورد في: بن نبي، 1985) حيث أن المشكلة بالنسبة للشخص المسلم لا تكمن في الفكرة بحد ذاتها، لأن الافكار موجودة ومصدرها القرآن والسنة النبوية، وإنما ما يفتقده المسلم هو منطق العمل، فنجد أن الشخص بإمكانه طرح الأفكار ولكن ليست لديه القابلية أو القدرة على تجسيدها، وهنا طرح مالك بن نبي

مقارنة بين الشخص المسلم والأوروبي، حيث أن الأوروبي يطرح الفكرة ويجسدها في معظم الأحيان، أما الشخص المسلم فيطرح الفكرة ويكتفي بتصورها. ولو أسقطنا هذا المثال على المناهج التربوية وطرق التدريس، نجد أن المدارس الأوروبية تعتمد على التدريب وإشراك التلميذ في العملية التعليمية، مما يجعله يقوم بتخزين المعلومة في الذاكرة طويلة المدى من خلال تطبيق الأفكار النظرية على الواقع، كما أنها توفر له المخابر والأدوات والأحواض الزراعية ...الخ، حتى يتمكن من ممارسة النشاط التعليمي على أكمل وجه، مما يجعل التعليم ناجحاً في تلك البلدان، والعكس تماماً في معظم الدول العربية حيث أن التلميذ مجرد بنك لتخزين المعلومات يجب عليه أن يسترجعها يوم الامتحان، وهذا ما يسمى بأسلوب التلقين وهو من الأساليب التي لا تساهم في بناء شخصية التلميذ أو في جعله إنساناً مبدعاً، بل تحصره في المعلومة التي يقدمها الأستاذ كمصدر أساسي لتلك المعلومة، وهذا ما أنتَج لنا تلاميذ وطلبة علامات لا طلبة علم، وفي هذا السياق جاءت مقولة الحكيم الصيني (كونفوشيوس) :"قل لي وسوف أنسى، أرني ولعلي أتذكر، أشركني وسوف أفهم" أي أنه كلما أُشرك التلميذ في العملية التعليمية وكان أحد محاورها، كلما ارتفع مستوى الاستيعاب والفهم لديه، وبالتالي زادت قدراته الإبداعية والذهنية والفكرية.

وإذا ركزنا على المناهج الدراسية أكثر والتي لا تتوافق معظمها مع الواقع العملي، فنرى تلك المناهج التي تقّيد عمل التلاميذ وتحصرهم في الإطار النظري الذي يتصف بالجمود على مستويين، إما أن يكون جامداً وغير عملياً في ذاته؛ أي أن هناك مشكلة في كيفية إعداد المنهاج نفسه ومدى توافقه مع الواقع العملي، أو أن هناك مشكلة في الكوادر المؤهلة –إن كانت كذلك– في طريقة توصيلها لهذا المنهاج وما يحتويه من معلومات إلى أذهان التلاميذ.

وباعتبار أن كل ما سبق ذكره يدخل في إطار مصطلح التربية الاجتماعية، فإنه يرى بن نبي (1985) أنه إذا لم تكن تلك التربية الاجتماعية وسيلة فعّالة لتغيير الإنسان نحو الأفضل، وتقوم بمساعدته على تكوين شبكة علاقات ناجحة، فإنها بذلك تصبح كما عبّر عنها مالك بن نبي "وكل كلمة لا تحمل جنين نشاط معين، هي كلمة فارغة، كلمة ميتة مدفونة في نوع من المقابر، نسميه: المعجم."

فإننا نرى في عصرنا الحديث وواقعنا الحالي في الدول العربية أن معظم تلك المؤسسات التربوية وخاصة المدرسة أصبحت مقبرة بشكل أو بآخر لمستقبل التلاميذ، فهي تدفع بهم كما أشرنا سابقاً وبفعل المنهاج الدراسي أو كيفية تطبيقه إلى الهاوية.

في هذا الصدد، جاء المفكر (إيفيان إيليتش) (1926–2002) بنظرية تطرح فكرة اللامدرسية، ومفادها أنّه يجب إلغاء المدارس، لأنّ نشاطها محكوم ببرنامج يطبّق حرفياً على التلاميذ، وهي لا تنجح في إعداد أصحاب المهارات العمليّة، ولا في تشكيل العقليّة الحرّة "حيث أن اللامدرسيون يؤمنون أن الإنسان يملك الدافعية للتعلم وحب الاستطلاع كجانب فطري غريزي، والكثير منهم يؤمن بأن المدارس العامة التقليدية تطبق على البشر منطق المصانع "مقاس واحد يناسب الجميع"، لأنها تحصر قدراتهم ومهاراتهم في نطاق معرفي واحد وتطالبهم بتعلم موضوع محدد بأسلوب محدد وبخطوات محددة وفي وقت محدد، بغض النظر عن شخصية المتعلم وقدراته وميوله" (أورد في: الرويس، 2012).

يتمثل مضمون فكرة (ايليتش) في إعطاء مجال للتلميذ في الإبداع والخروج عن نطاق المنهاج المدرسي، الذي يقيّد مهاراته ويحدّ من تطوير شخصيته وبنائها بناءً صحيحاً تُمكّنه فيما بعد من مزاولة حياته الاجتماعية بحرية وعقلانية، وبنوع من الابداع والتميّز، فالمدرسة حسب (ايليتش) تجعل التلميذ حبيس المنهاج والمعلم معاً، ولا يمكن أن يخرج عن نطاقهما، فيصبح بذلك عديم الشخصية ومكبوت الحرية. وتبرز لنا العديد من النماذج في الدول الغربية تحت مسمى "التعليم المنزلي" والذي يعتبر نسخة معدلة من نظرية اللامدرسية، والتي تعتمد على الدراسة خارج إطار المدرسة التقليدية ولكن بمناهج تقررها المدرسة، وقد اعتمدت العديد من الدول هذا النوع من التعليم بشكل اختياري منها امريكا ودول أوروبية أخرى.

ومن جهة أخرى جاء (ميشال دوفلاي)، حيث طرح نظرية "إعطاء معنى للمدرسة" وكانت مناقضة لما جاءت به اللامدرسية، حيث كان يدعو لضرورة وجود المدرسة على شرط أن ما تقدمه يكون له معنى فعلي، من حيث بناء التلميذ فكرياً وعقلياً ولا سيما الجانب النفسي والشخصي، من خلال إعطائه الفرصة للتعبير وإبداء الرأي، وكذلك فرصة التفكير واستخدام مختلف المهارات العقلية إضافة إلى التجربة والوقوع في الخطأ ثم تصحيحه، وغيرها من الطرق التي تنشئ التلميذ تنشئة صحيحة، فالمدرسة التي تجعل من التلميذ خزان تملأه بالمعلومات ثم تفرغه يوم الامتحان لامعنى لها، فهي تقوم بتجميد القدرات التي لابد أن تتطور في المدرسة لا أن تتلاشى.

ومن هنا نصل إلى فكرة عامة أن كل من (إيليتش) و(دوفلاي) رغم اختلاف طرحهم إلا أن كلاهما ركز على ضرورة إشراك الطفل في العملية التعليمية وجعله محورا أساسياً فيها، وترْك المجال له

لإبداء رأيه وتطوير ذاته وتحسين مهاراته وكفاءاته، مع المراقبة والتوجيه اللازمين سواءً من طرف المعلم أو الأولياء.

أما بالنسبة للمفكر (بيير بورديو) (1930-2002) فإنه ذهب إلى الطرح الذي يعكس إحدى أهم المفاهيم في علم الاجتماع والذي أطلق عليه مسمى نظرية "إعادة الانتاج الاجتماعي"، والذي يرتبط بشكل مباشر بالنظام التعليمي كجزء لا يتجزأ من النظام الاجتماعي ككل، ووصل (بورديو) خلال تحليله السوسيولوجي للتفاوت في النجاح الدراسي للأطفال في المدارس إلى أن الأصل الاجتماعي يعتبر المميز الأساسي الذي يتحكم في النجاح المدرسي لدى الأطفال، أي أن النجاح يكون نسبة إلى الطبقة التي ينحدر منها ذلك الطفل، وهذا ما أشار إليه (بورديو) بالرأسمال اللساني والرأسمال الثقافي اللذان يؤثران على مسيرة الطفل التعليمية، ويتعلق كل هذا بنوعية اللغة السائدة داخل الأسرة، فالمدرسة حسب (بورديو) تعمل على تهميش لغة الطبقات الشعبية التي لا تتوافق مع لغة المدرسة، فاللغة لا تكون متوافقة بين المعلم والتلميذ، وعلى العكس فإن لغة المدرسة تكون مطابقة وفقاً لما تتطلّبه معايير أُسر الطبقات العليا، ووحده الانتقاء الذي يأخذ بعين الاعتبار الفروقات الفردية في اللغة وفق الأصل الاجتماعي.

إذن تتضح لنا آراء (بورديو) حول النظام التربوي إذا قمنا بربطها بما يسمى بالسلطة الرمزية، حيث تتحدد السلطة الرمزية بوصفها سلطة لبناء الواقع، ووجودها يتحدد كبنية رمزية ذات وظيفة معرفية هي فرض السيادة وإعطاؤها صفة المشروعية لضمان هيمنة الطبقة المسيطرة في المجتمع، فالنظام التربوي مثلاً يهدف إلى المحافظة على النفوذ الثقافية للطبقة المهيمنة، حيث يقصي الطبقة الاجتماعية الدنيا، و يضفي المشروعية على الثقافة المسيطرة، وهنا يمكن اعتبار التربية المدرسية بمثابة عنف رمزي، لأنها تفرض ثقافة الطبقات المهيمنة و ترسخ شرعيتها لإعادة إنتاج النظام القائم، فالتربية لا تنتج عن المجتمع ككل، والثقافة ليست واحدة و موحدة، بل هناك ثقافات متعددة و متصارعة، بتعدد القوى الاجتماعية الموجودة في المجتمع، ولكن في المحصلة لا نرى إلا الرأسمال اللساني كمسيطر على اللغة الممارسة داخل المدرسة.

وإذا قمنا بتبسيط هذه الفكرة أكثر بقليل فنجد أن الثقافة المدرسية إن كانت على مستوى (المناهج الدراسية، أسلوب الأستاذ في إلقاء الدروس، مظهر الأستاذ والثقافة العامة المتداولة في المدرسة) فنجد أنها أقرب إلى ثقافة النخبة، وذلك لهدف تمكين أبناء الطبقات البرجوازية من الاستفادة من المواد المقررة، حيث أن رأسمالهم الثقافي يجعلهم متفوقين داخل المدرسة على أبناء الطبقات الدنيا، لأن المواد المقررة

تتناسب ورأسمالهم الثقافي، أي ما يتم تداوله في الأسرة يتم تعزيزه في المدرسة، فالأسرة والمدرسة تتوافقان في الشكل والمضمون.

وقد ربط التميز والنجاح المدرسي بالأصل الاجتماعي، فمثلاً عدم التكافؤ على مستوى الرأسمال اللغوي بين افراد الطبقات العليا يؤثر في النجاح الدراسي، وهنا يقول (بورديو) :"... التوزيع اللامتكافئ للرأسمال اللساني ذو المردودية النسبية بين مختلف الطبقات الاجتماعية، يشكل إحدى التوسطات الخفية والتي تتأسس خلالها العلاقة بين الاصل الاجتماعي والنجاح المدرسي" (أورد في: Bourdieu & Passeron, 1980). فاللغة إذن ليست آلة للتواصل وحسب، ولكنها تؤسس معجماً دلالياً ونسقاً تصنيفياً غنياً أو فقيراً إلى حدٍ ما، كما يظهر في طريقة القراءة واستعمال الالفاظ المعقدة سواءً كانت منطقية أو جمالية، وهذا يتعلق كما ذكرنا أنفاً بالأصل الاجتماعي أي اللغة السائدة داخل الأسرة، فالمدرسة تعمل على تهميش لغة الطبقات الشعبية التي لا تتوافق مع لغة المدرسة.

ومن هنا نصل إلى فكرة طرحها مالك بن نبي يشترك فيها مع (بيير بورديو) : " إن وظيفة الثقافة إذا مثلناها بوظيفية الدم، فهو يتركب من الكريات الحمراء والبيضاء، وكلاهما يسبح في سائل واحد من البلازما ليغذي الجسد، والثقافة هي ذلك الدم في جسم المجتمع يغذي حضارته، ويحمل أفكار الصفوة كما يحمل افكار العامة، وكل من هذه الافكار منسجم في سائل واحد من الاستعدادات المتشابهة، والاتجاهات الموحدة والاذواق المناسبة، وفي هذا المركب الاجتماعي للثقافة ينحصر برنامجها التربوي" (أورد في: بن نبي، 2007) .

❖ **التوجيه الفني:** وفي هذا العنصر يشير مالك بن نبي أن العمل أو الوظيفة أو المهنة التي يقوم بها أي إنسان لابد أن يكون فيها مستوى من الإبداع والحب مما يؤدي إلى التفنن في الانجاز، وهذا يرجع إلى ارتباط العنصر الأول بالثاني، أي التوجيه الجمالي بالمنطق العملي ليتحقق لدينا التوجيه الفني، فالأفكار المروجة على أي عمل إن كان بسيط أو كان ذو مستوى لابأس به، هي التي تحدد مدى تقبّله لدى الآخر، فمثلاً بعض الحِرف اليدوية مثل(النجارة، الفلاحة، عامل النظافة...الخ) المعظم يحمل نحوها نوع من الدونية لأن ما رُوّج لها كان سلبي جداً، ومعظم من يمارسها تجده يشعر بنوع من النقص اتجاه نفسه وما يقوم به، ولكن لو فكرنا لبرهة بزوال هذه المهن نجد أن المجتمع لن يقوم إلا بوجودها الفعلي، إذن لابد أن ننشر أفكاراً إيجابية نحو ما نقوم به وما يجب أن نقوم به في المجتمع لنتمكن من إنجازه بحب وإبداع، كما يجب أن نصل إلى مستوى من الوعي والادراك بأن المجتمع عبارة عن انساق فرعية

متكاملة الوظائف فيما بينها، فإذا اختلت وظيفة أحد الأنساق الاجتماعية الفرعية فسيحدث الخلل في باقي الأنساق، وكذا النسق العام.

وإذا نظرنا إلى المناهج التربوية من ناحية التوجيه الفني، فإننا نرى مبادرات ضعيفة وربما تصنّف كفردية إن كانت متمثلة بالفرد نفسه داخل المؤسسة التربوية، أو بالمؤسسة التربوية بين مجموعة المؤسسات التربوية الأخرى؛ أي داخل النسق التربوي، أو حتى على مستوى أعلى متمثل في النسق التربوي مقارنة بالأنساق الأخرى تحت مظلة النسق الاجتماعي العام، وذلك للخروج عن الركود الذي حلّ بالمدارس العربية في مختلف النواحي، منهجياً وتقنياً وفنياً، فمعظمها تتبع أسلوب التلقين ويخرج منها التلميذ بقدر من المعلومات لا تؤهله حتى ليصبح مواطناً صالحاً أو فرداً فاعلاً في المجتمع، أي بالأحرى ذلك الانفصال الذي حلّ بين المدرسة والمجتمع لم يغفل عنه مالك بن نبي، حيث قال في هذا الصدد "وكثيراً ما رأينا في جوانب المسجد أحد المصلين ذائباً في دموعه، بل لقد نرى الإمام نفسه وقد خنقته شهقاته وانفعالاته، ومع ذلك فإذا ما قضى هذا المستمع صلاته، بقيت (الحقيقة) التي زلزلت كيانه في المسجد ولم تتبعه إلى الشارع" (أورد في: بن نبي، 2007). أي نرى هذا الانفصال ليس فقط في المدارس وإنما في شتى مجالات الحياة، يأخذ أحدهم في المدرسة درساً حول النظافة العامة، ونجده في نفس الوقت يلقي القمامة في الشارع، وعلى صعيد آخر نجد أحد رموز القدوة لدى الطفل كوالديه مثلاً يلقي عليه محاضرة في فن إدارة الوقت وهو لا يتقن ذلك، إذن يحدث الانفصال في معظم الأحوال على المستوى الشخصي –ويُورّث أحياناً–، وذلك بترسيخ مبدأ التناقض للنفس وللغير، حتى يصبح هذا التناقض أسلوب للحياة لا يُرى على أنه نكرة أو أسلوب خارج عن المألوف، ولننظر حولنا للحظة فإننا سنرى نهراً من التناقضات ينهال علينا على المستوى الاجتماعي والثقافي والديني والسياسي.

هنا نرى التداخل ما بين المنطق العملي والتوجيه الفني، حيث لا يمكن أن يحدث الثاني إلا بوجود الأول قبله، ولا يمكن أن يكون هناك منطقاً عملياً إلا إذا سبقه توجيهاً جمالياً.إذن يمكن تبسيط هذه الفكرة بالشكل التالي، الذي يوضح أهمية اجتماع العناصر الثلاثة لتحقيق التوجيه القيمي:

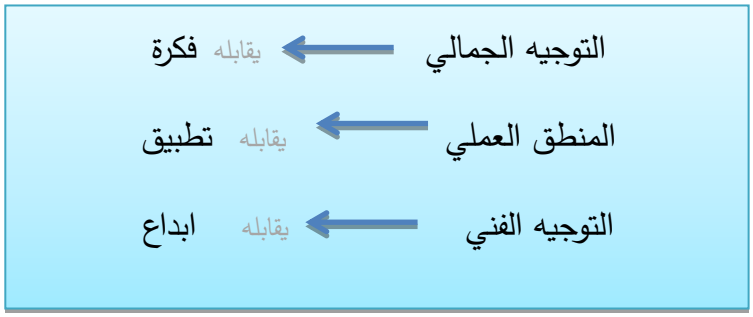

الشكل رقم (1) : أهمية اجتماع عناصر التوجيه القيمي

وباجتماع العناصر الثلاثة أوضح بن نبي (1985) أنه يمكننا تطبيق الفكرة بإبداع، لا نعني هنا تطبيق الفكرة وحسب، إنما إن غاب الابداع في تطبيقها يمكن أن تصبح أفكاراً تأخذ فيما بعد طابع التكرار أو حتى طابع الأفكار الميتة والمميتة، والتي أشار إليها مالك بن نبي في العديد من كتاباته، حيث يقول في كتابه (وجهة العالم الإسلامي) أن ما نعانيه من "اختلاط وفوضى في الميادين الفكرية والخلقية أو في ميادين السياسة، إنما هو نتيجة ذلك الخلط من الأفكار الميتة، تلك البقايا غير المصفاة، ومن الأفكار المستعارة التي يتعاظم خطرها كلما انفصلت عن إطارها التاريخي والعقلي في أوروبا"

وذلك كله في إطار فكرة الاصالة والمعاصرة، حيث نلاحظ في هذا السياق أن الصنف الأول والمتمثل بالأفكار الميتة بمعنى الأفكار البالية، يجسد فكرة الأصالة الخاطئة وذلك بالتمسك بما هو قديم دون مراعاة لأحداث العصر بدعوى الحفاظ على العادات والتقاليد والتراث، بينما الصنف الثاني متمثل بالأفكار المميتة بهدف المعاصرة، حيث يتم استيرادها من النموذج الغربي والتي لا تمتاز بفعاليتها خارج سياقها الحضاري الغربي. بينما ما دعا إليه مالك بن نبي هو الحفاظ على الأصالة والارتكاز على نموذج عربي إسلامي أصيل يحاكي النموذج القديم، وفي الوقت ذاته يقدم حلولاً واقتراحات لمستجدات العصر الحديث، وذلك كله باعتماد النموذجين معاً وانتقاء أفضل ما فيهما، في صيغة واحدة تتوافر فيها الأصالة والمعاصرة.هنا نصل إلى نتيجة مؤداها أن الأفكار لابد أن تعاصر الواقع وفي نفس الوقت تأخذ طابع المرونة والإبداع، وهذا هو فحوى التوجيه الفني.

وتظهر لدينا قضية أخرى في إطار التوجيه القيمي بشكل عام، وتتمثل وفق بن نبي (2015) في ظاهرة هجرة الأدمغة، أو كما أطلق عليها مالك بن نبي مسمى "خط الأنابيب الفكري"، حيث أخذ بن نبي يدافع عن أهمية الحفاظ على رأسمالنا الفكري، والذي يجب أن يُدعّم بالمنطق العملي والتوجيه الفني، مستشهداً بأحد شخصيات رواية عُرضت على التلفاز قائلة "لا يكفي أن تبدع أفكاراً، بل يجب أن تؤمّن لها الحياة" ، وهذا في إطار سير خط الأنابيب الفكري باتجاه الغرب، لا العكس، نظراً لعدم وجود أرضية خصبة تؤمّن الحياة للأفكار الإبداعية لدى الكثير من الفاعلين، وتسدّ الفراغ الناقص في مجال المنطق العملي. وبمعالجة جوانب التوجيه القيمي، تتحقق بذلك وفق بن نبي (1989) فكرة التوجيه بحد ذاتها، والتي أشار إليها مالك بن نبي في قوله "فالتوجيه هو تجنب هذا الإسراف في الجهد والوقت"، داعياً إلى

استغلال السواعد العاملة والعقول المفكرة في البلاد الإسلامية، مشبهاً إياهم بالجهاز الذي حين يتحرك يحدد مجرى التاريخ نحو الهدف المنشود.

❖**خاتمة:** إن مالك بن نبي لا يكتفي بالتحديد التنظيري للحضارة، بل يربطها بعناصرها الأساسية التي لا تقوم الحضارة إلا بمجموعها، فإذا كانت الحضارة في عناصرها الأساسية: الإنسان، التراب، الزمن، كما بيّن ذلك في مؤلفاته، والثقافة إذا كانت في حقيقتها أسلوب حضارة تحرك الإنسان، ووسائله عبر القنوات الأربع: المبدأ الأخلاقي، الذوق الجمالي، المنطق العملي، والتوجيه الفني؛ فإن مسيرة الحضارة هذه تدفع بالمجتمع إلى كب عجلة التنمية؛ تبعًا لدرجة تمحوره حول الأفكار أو حول الأشياء المحيطة به، ويرى بن نبي أن لكل حضارة نمطها وأسلوبها وخيارها.

ودعا مالك بن نبي إلى إيداع بدائل فكرية ومناهج تربوية مستقلة تتناسب مع البيئة الإسلامية بدل استيرادها، ويلح على الاستقلال الفكري وان هناك خصوصيات كثيرة تتميز بها كل حضارة عن غيرها، والحضارة لا يمكن استيرادها من بلد إلى أخر لأن الحضارة إبداع وليست تقليد واستسلام وتبعية. وطالما بقي المجتمع الإسلامي عاجزاً على إعادة بناء عالم الأفكار الذي ينسجم مع عقيدته وواقعه، فهذا يعني إن المجتمع ما يزال يعاني من التبعية والتخلف وعدم الارتقاء لدرجة الاستقلال والتحرر الشاملين والقدرة على تكوين إطار إبستيمولوجي يسمح بتطبيق جانب تربوي واضح وصريح يتماشى ومتطلبات المجتمع وخصوصيته السوسيوثقافية.

وقد تحدث مالك بن نبي بإسهاب عن أنواع الأفكار الاجتماعية ، وأشار إلى ازدواجية اللغة الناتجة عن الاستعمار وأثرها في البناء المعرفي الموحد للعالم الإسلامي، وقد عزى التخلف الموجود في العالم الإسلامي الداخلي أكثر من كونه سبب خارجي، وقال أنه ينبع من طبيعة تشكيل الشخصية التي امتلأت بالثقافة السلبية، والتي كوّنت مركب النقص لدى لمجتمع، فأدى إلى القابلية للاستعمار والتي تعتبر نوع من الانسلاخ عن المبادئ الأساسية والقيم الدينية التي يحملها الفرد، بالتخلي عنها والانصهار في الآخر والمقصود بالآخر أي الغرب، حيث نجد أن المسلمين قد تخلو عن مقوماتهم بالكامل، وقاموا بتبني أفكاراً وقيماً لا تتماشى مع الخصوصية الاجتماعية والدينية لمجتمعاتهم، وهذا ما يعرف باستيراد الافكار، والذي يبدأ مع تكون مركب التبعية لدى الفرد مما يجعله يشعر بالنقص نحو ما يقوم به وما يفكر فيه، ذلك ما يجعله مولع بتقليد الآخر، وهذه الفكرة لم تتكون لديه من فراغ وإنما استطاع الغرب أن يرسخها في ذهن كل "أهليّ" كما أشار إليها

مالك بن نبي أي الأفراد الذين تم استعمار بلادهم، وكل مستعمرة وضع الاستعمار قدمه فيها، وذلك لتكوين مركب النقص والتبعية لدى المجتمعات، والتي بقيت سائرة إلى يومنا هذا، وهذا ما جعل الفرد العربي المسلم قابلاً للاستعمار، خاضعا للآخر، منساقاً بكل ما أوتي، متنازلاً عن قيمه وأفكاره.

وتوصلنا من خلال هذه الدراسة إلى العديد من النتائج، تظهر أبرزها فيما يلي:

✓ وجود علاقة وصلة قوية بين الأخلاق والحضارة؛ أي القيم الدينية وبناء الحضارة، واعتبارها عاملاً جوهرياً يساهم في بقائها ونمائها.

✓ درس مالك بن نبي الحضارة من حيث وظيفتها في المجتمع، وابرز دور البعد الديني والثقافي كونها تُعين الحضارة على أداء وظيفتها الكاملة، وتجلت بما سماه العوامل المعنوية في مقابل العوامل المادية، كما تجلت في الشروط الأخلاقية التي اتاحت للمجتمع فرص التطور والنمو.

✓ تتأسس قواعد التربية الاجتماعية على مجموعة من القواعد، منها القاعدة التاريخية التي تتحد من خلال استقراء تاريخه وصيرورته التي شكّلت بناءه الاجتماعي.

✓ ركز مالك بن نبي على فكة الأصالة والمعاصرة، ودعا إلى التمسك بالقديم مع الإقبال على الجديد، بشرط أن لا يفقد الإنسان طبيعته الاجتماعية وخصوصيته الثقافية، وينتقي منه ما يلبي حاجياته.

✓ ما يمكن أن نلاحظه عن بن نبي وهي ميزة افتُقدت في الأجيال الحالية، وهي كثرة قراءة الكتب والمطالعة المستمرة لأمهات الكتب، حيث استطاع مالك بن نبي أن يكون عصامياً في تكوين عالم أفكار زاخر.

✓ استطاع مالك بن نبي التأكيد على أن التربية هي العمود الأساس في فعل يحدث داخل المجتمع، وهي ليست مقرونة بالمؤسسة التعليمية أي المدرسة.

❖ قائمة المراجع:

1. الرويس، عزيزة سعيد (2012). في مفهوم اللامدرسية. مقال، جامعة الملك سعود، الرياض، السعودية: http://www.saudiacademics.com 2
2. بن نبي، مالك (1989). وجهة العالم الإسلامي. ترجمة: عبد الصبور شاهين. بيروت، لبنان: دار الفكر المعاصرة.
3. بن نبي، مالك (1985). ميلاد مجتمع. ترجمة: عبد الصبور شاهين. لبنان: اصدار ندوة مالك بن نبي .
4. بن نبي، مالك (1989). شروط النهضة. ترجمة: عمر كامل مسقاوي وعبد الصبور شاهين ، دمشق: دار الفكر.
5. بن نبي، مالك (2013). مشكلة الثقافة. الجزائر: دار الوعي.
6. بن نبي، مالك(2013). في مهب المعركة. ترجمة: عبد الصبور شاهين. الجزائر: دار الوعي.
7. بن نبي، مالك(2015). من أجل التغيير، دار الفكر، دمشق، سوريا.
8. دنيس، كوتش(2007). مفهوم الثقافة في العلوم الاجتماعية. ترجمة: منير السعيداني، المنظمة العربية للترجمة. بيروت ،لبنان.
9. قسوم، عبد الرزاق (2012). إشكالية الحضارة في فكر مالك بن نبي. https://binbadis.net
10. Bourdieu, P., & Passeron, J- C .(1970) . La reproduction éléments pour une théorie système d'enseignement. Les études de minuit .